Iraqi Journal of Humanitarian, Social and Scientific Research المجلة العراقية للبحوث الانسانية والاجتماعية والعلمية
Print ISSN: 2710-095 Electronic ISSN 2790-1254
عدد خاص بالمؤتمر العلمي الدولي الثامن لكلية التربية ابن رشد للعلوم الانسانية – جامعة بغداد بعنوان
التكامل المعرفي للدراسات التربوية والاجتماعية

الانساق الثقافية في رواية "خلف السّدة" لعبدالله صخي

م.د حسين علي مشحوت حليحل
جامعة النهرين/ كلية هندسة المعلومات
husseinalim1988@gmail.com

الملخص

يحاول هذا البحث الكشف عن الأنساق الثقافية في رواية " خلف السدة" للروائي العراقي عبدالله صخي، وذلك للوقوف على تأثير الثقافة في الأفراد والمجتمعات، وقد عمد البحث إلى الوقوف على ثلاثة أنساق كبرى هي: (النسق السياسي، والنسق الاجتماعي، والنسق الديني)، وعرض ضمنها لأنساق فرعية تتواشج معها غاية تقديم صورا متعددة وكشف الصراعات الداخلية والخارجية التي يواجهها الأفراد في ظل قوى سياسية اجتماعية ودينية ضاغطة، وتتأتى أهمية هذا البحث في أنّه محاولة لفهم كيفية تأثير الأنساق الثقافية المتنوعة في سلوك الأفراد وبناء الهوية في سياق اجتماعي محدد، ويهدف البحث إلى تتبع لأنساق الثقافية المختلفة في رواية "خلف السدة" وتحليلها، ودراسة تأثير النسق الاجتماعي في المجتمع، والدلالات التي تنتج عن استخدامه مع مراعاة تنوع السياقات القولية، ويضاف إلى ذلك تسليط الضوء على كيفية تناول الرواية للعادات والتقاليد في البيئة التي تنتمي إليها. واعتمد البحث في تتبع الأنساق الثقافية آليات النقد الثقافي وشُفع ذلك بدراسة نصية تحليلية كشفت عن الدلالات المضمرة وإظهار المسكوت عنه.

كلمات مفتاحية: الأنساق، الثقافية، خلف السدة، عبدالله صخي، رواية.

Cultural patterns in novel " Behind the Dam" for the Abdullah Sakhi.

Dr. Hussein Ali Mashhout

Abstract

Studying cultural patterns in creative works is crucial for understanding the influence of culture on individuals and societies, This type of study includes analyzing the patterns, beliefs, and traditions that shape collective consciousness and guide individual behaviors within society, The novel "Behind the Dam- Khlaf al sadaa-" by the Iraqi novelist (Abdullah Sakhi) is one of the most prominent literary works that sheds light on numerous cultural patterns. In it, the author presents an expressive picture of life in a specific environment, addressing issues such as cultural identities, social classes, and human relationships, This allows the reader to delve into the depths of the symbolic meanings and cultural patterns it contains, with the aim of analyzing them and discovering the implicit meanings intended by the novelist.The importance of this research lies in its attempt to understand how diverse cultural patterns influence individual behavior and identity formation within a specific social context. Furthermore, analyzing cultural patterns helps to illuminate the relationship between the individual and society and the formation of relationships that govern life.

Keywords: novel, patterns, culture, Abdullah Sakhi, Iraqi novel

مقدمة:

تعد دراسة الأنساق الثقافية في الأعمال الإبداعية من الدراسات المهمة لفهم تأثير الثقافة في الأفراد والمجتمعات، ويشمل هذا النوع من الدراسة تحليل الأنماط والمعتقدات والتقاليد التي تُشَكّل الوعي الجمعي وتوجه سلوكيات الأفراد داخل المجتمع، وتُعد رواية "خلف السدة" للروائي العراقي عبدالله صخي من الأعمال الأدبية التي تسلط الضوء على العديد من الأنساق الثقافية، وقد قدم فيها الكاتب صورة معبرة عن الحياة في بيئة معينة، متناولًا قضايا مثل الهويات الثقافية، والطبقات الاجتماعية، والعلاقات الإنسانية وهذا يجعل القارئ الغوص في أعماق المعاني الرمزية والأنساق الثقافية التي تتضمنها بقصد تحليلها واكتشاف الدلالات التي قصد إليها الروائي.

أهمية البحث:

تكمن أهمية البحث في أنه محاولة لفهم كيفية تأثير الأنساق الثقافية المتنوعة في سلوك الأفراد وبناء الهوية في سياق اجتماعي محدد، كما أن تحليل الأنساق الثقافية يساعد في تسليط الضوء على العلاقة بين الفرد والمجتمع وتشكل العلاقات التي تحكم الحياة.

أهداف البحث:

يهدف البحث إلى تتبع لأنساق الثقافية المختلفة في رواية "خلف السدة" وتحليلها، ودراسة تأثير النسق الاجتماعي في المجتمع، والدلالات التي تنتج عن استخدامه مع مراعاة تنوع السياقات القولية، ويضاف إلى ذلك تسليط الضوء على كيفية تناول الرواية للعادات والتقاليد في البيئة التي تنتمي إليها.

منهج البحث:

اتبع البحث آليات النقد الثقافي مشفوعا بالتحليل النصي الذي يرمي إلى تفسير دلالات الأنساق الثقافية داخل النص الروائي.

النسق الثقافي:

توضح المعاجم اللغوية العربيّة أن الجذر (نسق) يحمل مجموعة من الدلالات اللغوية، فقد ذكر ابن منظور في لسان العرب أنّ النسق من كل شيء ما كان على طريقة نظام عام في الأشياء[1]، وفي الصحاح "النسق بالتسكين مصدر نسق الكلام إذا عطف بعضه على بعض وبابه نصر، والتنسيق التنظيم" [2]، فالجذر اللغوي يعني الانتظام والتناسق والتساوي والتتابع.

أمّا اصطلاحا فقد تعددت التعريفات التي تناولت مصطلح النسق، ومنها تعريف عز الدين مناصرة الذي رأى أنّ النسق "هو النظام التقني الذي يميز البنيات المتشابكة في النص، وهو متعدد ومتنوع وقد يتكرر، وهو عالمي ودال على مستويات البنية، وهو تقليدي ونمطي وشكلي ومبتكر في الوقت نفسه بينما ترتكز البنية على الدلالة على الرغم من تقنيتها الشكلية وهناك بين النسق والبنية علاقة جدلية لا فكاك منها فالبنية هي التي تكشف النسق كما أن النسق هو الذي يكوّن البنية"[3]، وهو كما رأى نعمان بوقرة " ما يتولد عن تدرج الجزئيات في سياق ما، أو ما يتولد عن حركة العلاقة بين العناصر المكونة للبنية " [4]، ونلحظ التوافق بين المعنيين اللغوي والاصطلاحي؛ كلاهما يدلّان على التماسك والانتظام والتتابع، ويعبّر النسق الثقافي عن تصوّر الإنسان لما ينبغي أن تكون عليه الحياة والأنساق الثقافية قابلة للتصور شأنها شأن عناصر الحياة كلّها وبناء على ذلك تكون الأنساق الثقافية قادرة على التعبير عن فكر الإنسان وواقعه[5]، كما أنه يسهم في البناء الاجتماعي لشؤون الحياة، في الأعمال الأدبية يحمل النسق الثقافي دلالات مضمرة وظاهرة ذات تنوعات إيديولوجية، كما أنّ الأديب "يكشف في إنتاجه تمثيلات أيديولوجية وبشكل متميز حاد ومحكم ومتماسك الأنساق التي أنتجتها هذه التمثيلات"[6]، وتجدر الإشارة إلى أنّ حضور النسق الثقافي في العمل الأدبي لا يكون على واحدة، وإنما يوظفه الكاتب الحاذق بمهارة تحمل في طياتها خصوصية المجتمع والبيئة الحاضنة.

وتكمن أهمية النسق الثقافي في قدرته على التعبير عن النص وكشف ما ورائه، والنص الأدبي عندما يخضع للقراءة التي تتبع الأنساق الثقافية يتحول إلى خام منفتحة على تنوع القراءات، ويكون النص بذلك قد وصل إلى تجرد تام[7].

في هذا البحث سنحاول الوقوف على أهم الأنساق الثقافية الرئيسة التي شغلت حيّزا في الرواية المختارة، وسنعضّد ذلك بشواهد تطبيقية من الرواية تكشف عن أنساق فرعية تتوزع داخل الأنساق الرئيسة أو تتفرع منها، وسيتضح ذلك من خلال تتبع الأنساق ودراستها وتحليلها.

الدراسة التطبيقية:

كشفت القراءة المتكررة لرواية " خلف السدة" عن ثلاثة أنساق رئيسة هي: النسق الاجتماعي، والنسق السياسي، والنسق الديني، ولإيضاح أثر هذه الأنساق داخل العمل الروائي لابدّ من قراءتها على نحوٍ منفرد، وتتبع ما يتفرع عنها من أنساق متّصلة بها بقصد الكشف عن الدلالات المضمرة، والمتنوعة في المرجعية، وذلك على النحو الآتي:

أ- النسق الاجتماعي:

يعدّ النسق الاجتماعي عامل انسجام وتلاحم بين أفراد المجتمع الذين تربطهم مجموعة من العلاقات الوضعية المشتركة والمتفق عليها من مثل: العادات والتقاليد، وقد تعددت تعريفات النسق الاجتماعي فقيل إنّه: "عبارة عن مجموعة كثيرة من الفاعلين الذي تقوم بينهم علاقات تفاعل اجتماعي في موقف اجتماعي معين ويتجهون نحو تحقيق الإشباع الأمثل لحاجاتهم، كما تتحدد علاقاتهم الاجتماعية عن طريق بناء ثقافي مميز ومجموعة من الرموز المشتركة"[8] يضاف إلى ذلك أنّه نظام يتضمن أبنية المجتمع كلّها، وقد تبدت مجموعة من الأنساق الثقافية الاجتماعية في رواية " خلف السدة" ومن ذلك مثلا نسق (النفور) من المكان والهجرة بعيدا عنه، وقد تبدى ذلك في قول الروائي عبدالله صخي:

"في ذلك الصيف البعيد وصلت المجموعة الأولى من المهاجرين الذين تركوا أرياف الجنوب وأهواره وقدموا إلى المدينة حالمين بحياة جديدة بعد أن قطعوا مسافات طويلة في عربات خشبية مفتوحة الجانبين لها سقوف من شعر الماعز، تجرها خيول أرهقتها الدروب الوعرة والمستنقعات الجافة المتشققة. كانت وجوه الرجال مغبرة ملفعة بكوفيات تنحدر منها جدائل مرصعة بالعفص والخضرم والودع، ولها نهايات تيبست من العرق والغبار"[9]

يعرض الروائي من خلال الفقرة السابقة لحالة اجتماعية تتمثل في الرغبة بتبديل المكان، ويعد هذا النسق الثقافي طرحا لمشكلة اجتماعية توضح دلالات الشقاء والعناء والحلم بحياة أفضل، وتتشكل من خلال هذا النسق الفرعي ثنائية الريف / المدينة، الريف بما يحمله من قيم وجمال وطبيعة وبساطة، والمدينة التي تمثل الصخب والعمل والغنى والتباعد الاجتماعي، وهذا الانتقال الذي يعرضه الروائي والذي يجسد الرغبة بترك الريف والتحول إلى المدينة يعطي دلالة أخرى ترتبط بالواقع الحياتي المهمل وعدم القدرة على إكمال الحياة، الأمر الذي يسبب حالة اختلال في الوضع الاجتماعي؛ لأنّ هجر الريف وترك خيراته سيؤثر سلبا على المنتجات والحاجيات الخام، وبذلك يكون الكاتب قد طرح _ عن طريق الإضمار_ مشكلة اجتماعية، محاولاً التنبيه إلى إيجاد حل لها، وانطلاقاً من ذلك يكون النسق الثقافي الاجتماعي الذي طرحه الروائي من خلال اللغة الأدبية حاملاً لدلالات الخطورة والتحذير والسلبيات التي ستنتج عنه لاحقاً.

ومن الأنساق الثقافية الفرعية التي تقع في دائرة النسق الاجتماعي، قول الروائي معبّراً عن حالة الفقر: " كان النهار قائظا وهو يدفع عربة مرطبات بيضاء بثلاث عجلات وينادي على بضاعته مبتهجا بما باعه في الساعات الأولى إلّا أن اشتداد حرارة الطقس بعث فيه قلقا حول قدرته على الاستمرار مشيا في الطرقات المتربة اللاهبة"[10].

فالقارئ للأسطر النثرية السابقة يجد أنّها عبارة عن وصف لبائع المرطبات وحركته، لكنّها من ناحية ارتباطها الثقافي فيها إضمار لنسق اجتماعي يُلمِّح بصعوبة الحياة، وربما كان عرض الروائي لهذا النسق من باب طرح مشكلة البطالة وما يعانيه الشباب من قلّة الوظائف فتصعب عليهم الحياة، وبهذا تكون المضمرات النّصيّة التي انبثقت عن هذا النسق الفرعي ذات تعالق اجتماعي هادف في سبيل حل مشكلة ما، وهدف قصدي لأنّ اللّغة التي كتب بها الرّوائي مؤثرة وفاعلة وقد حمّلها الكاتب دلالات متنوعة.

ومن الأنساق الثقافية الاجتماعية نسق الاضطهاد الأنثوي، وقد ورد في قول الروائي: "وقت القيلولة وصل ثلاثة رجال ملثمين في سيارة حمل صغيرة من نوع "بك آب" تسلقوا سياج البيت الطيني ونزلوا إلى باحة الحوش، تسلل أحدهم إلى الكوخ وسحب الفتاة النائمة من ضفائرها صرخت بفزع فأفاق سوادي حميد وهم باستلال بلطته التي غالبا ما يخفيها تحت الوسادة فعاجله أحدهم بضربة خنجر، وأمام الزوجة المرتعبة تناولوا جسده بالسكاكين"[11] .

يعرض الروائي في الأسطر السابقة لحالة اجتماعية خطيرة، وقد جاء هذا الكلام ضمن الرواية في سياق الحديث عن زواج الفتاة من دون موافقة اخوتها وأهلها، وهذا السياق يوضح حالة الاضطهاد الاجتماعي التي يريد الروائي جعلها قضية رأي عام، وينشد الدفاع عن حقوق المرأة وضمان كرامتها واحترام رأيها، وبذلك يكون قد استطاع _ عن طريق لغته الأدبية وتوظيفه للنسق الفرعي المتمثل بالإعتداء_ أن يسلط الضوء على حالة حساسة بنتائجها على المجتمع بأكمله، وربما يضمر من خلال كلامه رغبة تتمثل في رفض هذه الحالة والدعوة إلى الابتعاد عنها ومعالجتها بطرق سلمية وراقية، ومما يدلّ على ذلك ويقويه؛ قوله في مكان آخر من روايته: "كلثوم التي قتلت على مشارف مدينة جنوبية بسبب شكوك أخوتها بأنها تعشق شخصا لم يتمكنوا من معرفته حتى لحظة موتها واندثار سرها"[12]، والفكرة التي يود الروائي إبراز العصبية القبلية في شكل من اشكالها، عبر تلك الشخصية (كلثوم) التي قُتِلت بجناية العشق، ذلك التشدد القَبلي الذي ينادي بحفظ الكرامة والسمعة وتطهير العائلة من الأخطاء كان ذلك نسقا بارزا ساهم في إنتاجه الراوي بلغته السردية، وربما كان ذلك إسهاما مباشرا من الراوي العليم بكل شيء للوقوف أمام تلك المفاسد التي تتخطى القانون وتجعل من العبثية والفوضى بديلا عنه.

والقارئ للرواية يجد تكرارا لهذا النسق الفرعي، ففي قول الراوي" وإذ لم يتمكن سلمان اليونس من انتزاع أي اعتراف من ابنته عن صلتها بعبد الحسين بعد ضربها بوحشية تركها وهي تنحني إلى الأرض وتبكي"[13]، يلحظ المتلقي تغييبا واضحا للقيم العائلية وتحييد دور العقل والقانون، وهذا النسق الاجتماعي ساعد على إبراز التشدد القبلي، ويؤكد الروائي على ذلك في الآتي:

"غدت البلدة حارات متجاورة غير منفصلة بأسوار أو أسيجة أو حدود. إنها منفصلة بأسماء فقط لم تكن سوى اتجاهات. كل حارة هي اتجاه، أو إشارة، أو علامة تأخذ اسم عشيرة أو فخذ كنانة، الخزاعل بني عكبة، الحلاف السواعد بني لام الوحيلات البيضان الكورجة بيت زامل الفراطسة عبوده بني كعب النصيرات السودان البهادل البو محمد آل ازيرج"[14]، إذ يعكس الروائي من خلال الأسطر السابقة بنية اجتماعية تقوم على الانتماء القبلي بوصفه عنصراً رئيسا في تشكيل هوية الأفراد وتفاعلاتهم داخل المجتمع، إذ يشير وصف الحارات - التي تتجاور من دون أن تكون مفصولة بأسوار أو حدود مادية، والتي تتميز عن بعضها من خلال أسماء قبائل وعشائر- إلى أن الفصل بين الأفراد يتم بناءً على الهوية القبلية وليس الجغرافية، كل حارة تمثل اتجاهًا أو علامة دالة على قبيلة أو فخذ معين، ما يعكس الدور المهم الذي تلعبه القبيلة في تنظيم العلاقات الاجتماعية وتحديد مكانة الأفراد، وهذا النسق الفرعي يُظهر كيف أن القبيلة ليست فقط إطارًا ثقافيًا واجتماعيًا، بل هي سلطة تفاعلية داخل المجتمع، حيث يتمازج التعايش بين القبائل في بيئة مرنة تعتمد على الروابط العائلية والعشائرية بدلاً من الحدود المادية، ويضاف إلى ذلك أنّ الساكنين لتلك المناطق ظلوا محافظين على عاداتهم، وهذا ما يثبته الراوي بقوله:

"أضرمت امرأة نارا بين ثلاثة أحجار وضعت فوقها إناء معدنيا بهيئة ترس وتركته حتى يسخن" [15]، فعلى الرغم من انتقال أهل الريف إلى المدينة فقد حافظوا على عاداتهم القبلية؛ إذ تُظهر المرأة استخدام أساليب بسيطة وفعّالة للطهي تعتمد على موارد الطبيعة، مثل إشعال النار بين ثلاثة أحجار واستخدام إناء معدني، وهذا يعكس الدور التقليدي للمرأة في المجتمع القبلي، الذي غالبًا ما يتضمن مسؤوليات الطهي ورعاية الأسرة باستخدام تقنيات قديمة تؤكد العلاقة الوثيقة مع البيئة.

ومن حديثه عن نسق القبيلة الفرعي الذي ينسجم مع النسق الاجتماعي قوله: "غسلت النسوة الأواني بالماء والرماد مسرورات بالرذاذ البارد المتساقط على أقدامهن وسواعدهن يبللن وجوههن المحمرة وينشدن أغاني بأصوات خجولة"[16].

إذ ينقل الروائي من خلال الفقرة السابقة مشهداً من الحياة اليومية في مجتمع قبلي يعتمد على الأنشطة التقليدية التي تقوم بها النساء، هذا الفعل يعكس كيف أن النشاطات اليومية البسيطة تشكل جزءًا من النسيج الثقافي للقبيلة، وتساهم في تعزيز الهوية الجماعية من خلال الأفعال المشتركة والاحتفال بالحياة اليومية، ولعل عرض الروائي لهذه التفاصيل يشي بغياب المدنية، وعدم القدرة على التحضر، ولذلك فإنّ نقل ثقافة الريف المتواضعة إلى المدينة لن يحقق النمو المنشود، بل سيحقق التداخل تفاوتا طبقيا واضحا يؤدي إلى مزيد من المشكلات المجتمعية.

ومن خلال هذه القراءة يمكن القول: إن النسق الثقافي الاجتماعي يعكس تداخلًا معقدًا بين عدة أنساق فرعية تمثلت في الرواية بقصد التأثير في حياة الأفراد والمجتمعات، و إعادة تشكيل الواقع، وبناء الهوية الثقافية لأفراد المجتمع.

ب- النسق السياسي:

إنّ المتتبع للدراسات الثقافية والأدبية يلحظ ارتباطا واضحا بينها وبين والسياسة، ويتطلب هذا الأمر من الناقد المثقف أن يجعل من ذلك نقطة انطلاق عند إعادة تقويم العمل وسبر جزئياته، بل يوجب عليه في كثير من الأحيان أن يضع العمل ضمن سياقه السياسي من ناحية والنقدي من ناحية أخرى[17] ليكوّن النص علامة ثقافية فارقة تتمحور بسياق سياسي له دلالات قصدية يرغب المبدع في ايصالها إلى المتلقي للتأثير فيه وإطلاعه على مضمرات إيديولوجية متنوعة داخل النّص.

وتجدر الإشارة إلى أنّ الكلام عن السياسة في النصوص الأدبيّة ليس من باب الحداثة والمعاصرة، فالقارئ في الشعر الجاهلي يجد حديثاً عن السياسة في أثناء الحديث عن القبيلة، وقد تتابع هذا الأمر فيما تلاه من العصور الأدبيّة[18]، والأدب العراقي واحد من الإبداعات التي عبر الأدباء من خلالها عن الحياة بمجالاتها كلّها، وهذا الأمر ليس غريبا لأن المبدع هو الأكثر التصاقا بالواقع السياسي وهذا الأمر مرتبط بالواقع الذي يفرض عليه واقعا معينا يعيشه، وقضيّة يتبناها.

وبما أن الأنساق تؤخذ من الحقبة الزمنية، ومن الواقع الاجتماعي، فيتجلى النسق السياسي المأخوذ من طبيعة الأعمال الفلسطينية التي تتجلى فيها السياسة عبر سنوات الاحتلال الطويلة.

ومن النسق الثقافي السياسي ما يعرضه الروائي من إيذاء السلطة في قوله:

"بعد أيام من مجيء المساحين وصلت شاحنة تابعة لبلدية المدينة برفقة مفرزة شرطة هبط منها موظف يرتدي بدلة زرقاء، كمم أنفه بمنديل أبيض وهو يتطلع إلى مياه البرك والمستنقعات المخضرة الآسنة، أمر العمال بوضع علامة باللون الأحمر على البيوت المرشحة للهدم"[19].

تنقل الفقرة السابقة صورة من صور الإيذاء الإداري للسلطة، أو مايسمى سوء استخدام المنصب، وهو خروج عن القانون ضمن النسق الثقافي السياسي، ويبدأ الإيذاء كما يصوره الروائي من لحظة وصول المساحين والشاحنة، إذ يتخذ الموظف التابع للبلدية إجراءات تدميرية تجاه المنازل التي تراها السلطات "غير صالحة" أو "خطرة"، كما يتجسد العنف في أمره للعمال بوضع علامات حمراء على البيوت المرشحة للهدم، وفي السياق ذاته، يظهر الانتهاك السياسي عبر استخدام القوة الرسمية (الشرطة) والإجراءات القسرية (وضع العلامات) التي تستهدف تدمير الممتلكات الخاصة، مما يدلّ على عدم قدرة النظام السياسي في توفير حلول أخرى تحترم حقوق الأفراد، كما أن الكمامة التي وضعها الموظف على أنفه تشير إلى التنكر أو التباعد الاجتماعي بين السلطة والمجتمع المتضرر من قرارات قهرية تفرض على الناس، فتسلبهم حقوقهم في العيش في أماكنهم التاريخية، ومن ثَمّ يتقاطع هذا الانتهاك مع النسق الثقافي السياسي.

ويتابع الروائي في هذا النسق معبرا عن الظلم الواقع من السلطة تجاه الشعب، فيقول:" زحفت الآلات نحو البيوت من جميع الجهات المحيطة بالبلدة. كانت الخطة تقضي بأن يتم التهديم من الاطراف متقدما خطوة خطوة نحو المركز الذي اعتبر مرقد السيد جارالله"[20].

يوظف الراوي في الفقرة السابقة نسق الظلم والقمع الذي تمارسه السلطة السياسية ضد الشعب، إذ يُصوَّر هدم المنازل باستخدام الآلات الثقيلة لقمع المقاومة والقضاء على الهُويّة الثقافية للشعب، واستخدام هذا النسق في ما وراء اللغة يشي بدلالة الهيمنة السياسية على الأفراد بقصد القضاء التمرد أو المعارضة، وفي هذا السياق تعكس اللغة ثقافيًا سعي الأنظمة إلى محو الرموز والمعالم التي قد تشكل تهديدًا لها.

ومن النسق الثقافي السياسي الذي عرضه الروائي في روايته حديثه عن الصراع على السلطة والاغتيالات وبناء السجون واستخدام الانتهاك ضد الشعب، ومن ذلك قوله: " كان هناك رتل من الدبابات قادم من جهة ساحة التحرير بتدفع نحو موقع خزان الماء الضخم، فيما انتشرت بسرعة فائقة مدرعات يتخذ الجنود الذين على ظهرها وضعا قتاليا. فجأة خرج جنود من مكان ما من الساحة وتوزعوا في الزوايا والمنعطفات ومداخل الشوارع القريبة المؤدية إلى الساحة شارع الكفاح، شارع الجمهورية، شارع النضال، فيما قام قسم آخر بصد الناس الذاهبين إلى اعمالهم طالبين منهم العودة إلى بيوتهم. توجس الناس شرا فانسحب قسم منهم فيما ظل قسم آخر يحاول معرفة ما يجري فوقفوا فوق سدة ناظم باشا مرت فوق رؤوسهم طائرات مقاتلة كانت تحلق على ارتفاع منخفض، وبعد دقائق شاهدوا كتل دخان في سماء بغداد، لكنهم لم يتمكنوا من تحديد المواقع التي تنبعث منها" [21].

فالقارئ للأسطر السردية السابقة يجد أنّ انتهاك السلطة في سياق النسق الثقافي يتجاوز كونه استعمالا للقوة، ويشمل آليات ثقافية تكرس التفاوتات الاجتماعية، ولا تقتصر السلطة على الدولة أو أجهزة السياسية، بل إنها تمتد إلى

الأنساق الثقافية التي توضح رؤية الأفراد والمجتمعات، ففي الأماكن التي تتحكم فيها تقاليد وعادات صارمة تستطيع السلطة أن تتسلل من خلال الأنماط الاجتماعية إلى جوانب الحياة كلها، ولذلك يعد استخدام القوة العسكرية ضد الشعب على نحو مفرط بالدبابات والمدرعات والأسلحة نسقاً ثقافيا يوحي بالتسلط والظلم والوحشية والقمع، وتُظهر هيمنة السلطة على الفضاء العام باستخدام أدوات قمعية تهدف إلى ترهيب المدنيين وفرض السيطرة عليهم، كما أنّ صورة الجنود المنتشرين في الشوارع ومداخل الساحات، والذين يطلبون من الناس العودة إلى بيوتهم، تعكس محاولات السلطة لتفريق أي تجمعات محتملة وفرض الانصياع بالقوة، أما ردود فعل الناس، التي تتراوح بين التوجس والانسحاب، فإنها توحي بحالة الخوف والارتباك التي يعيشها الأفراد في مواجهة هذه السلطة القمعية.

ومن صور الرفض للذل ومقاومة الاستبداد، تعبير الروائي عن نسق ثقافي سياسي ثوري في قوله: " القتال في الشوارع والحارات طوال النهار ورئيس الوزراء ورفاقه يقاومون قصف طائرات ودبابات الانقلابيين كان يرى مؤيديه يتساقطون أمام عينيه الواحد تلو الآخر، وفي ظهيرة اليوم التالي استسلم للانقلابيين بالاتفاق على ضمان حياته"[22].

تبرز صورة الانتهاك السياسي في الدفقة النثرية السابقة من خلال تصوير الصراع القائم بين الثوار والسلطة الحاكمة، ويشي ذلك برفض الجماعة للظلم وتوحيد الكلمة ضده. ويحاول الروائي من خلال استخدام هذا النسق أن ينقل الصورة المأساوية للصراع العسكري بين السلطة والمتمردين، وتورط القوة السياسية في دوامة العنف المدمر، أما مشهد الاستلام الذي يتحدث عنه الراوي في سياق النسق الثقافي فإنه يكشف عن مأساة القوة السياسية التي تتخلى عن المبادئ التي تنشدها في لحظة الهزيمة، وهذا يشير إلى الواقع المؤلم للأبطال السياسيين الذين يواجهون هجوم المعارضة العسكرية ويقعون بين ناري الموت أو الاستسلام.

ويمكن القول: إنّ النسق الثقافي السياسي يشير إلى التفاعل بين الثقافة والسياسة داخل المجتمع، وتكون الثقافة جزءاً من الفضاء السياسي الذي تحدده السلطة، ويمكن التعبير عنها من خلال الرموز والأيديولوجيات والتصورات الجمعية.

ج- النسق الديني:

يشكل النسق الثقافي الديني في النص الأدبي مجموعة من المعتقدات التي يؤمن بها مجموعة من الأفراد في حيّز مكاني ما، وسمته أنّه متنوّع من مجتمع لآخر[23]، ويوسم النسق الديني بأنّه بوتقة للفروع والجزئيات والتفاصيل من اعتقادات وأقوال وأفعال بحيث تسهم في إيضاح دين أو تقاليد مجتمع ما، ويدل الشخص من خلال تمثله لتلك الجزئيات على انتمائه لدين ما أو تمسكه بعادات من سبقه [24]؛ فالنسق الديني من الأنساق الثقافية التي تتمظهر في العادات والأعراف والتقاليد ومجموعة القيم.

ويعرض الروائي (عبدالله صخي) في روايته مجموعة من الأنساق الثقافية الدينية منها مايتعلق بالعادات والتقاليد ومنها مايتعلق بالسلطة الدينية، ولإيضاح ذلك أكثر نستحضر مجموعة من الفقرات من الرواية التي تدخل في بوتقة النسق الديني، ومن ذلك قول الروائي:

" ذلك الصباح نذرت مكية الحسن أمام جاراتها قائلة إنها إذا أنجبت ولدا ينجو من الموت فستضع في مرقد سيد جار الله دينارا من أول مرتب يتقاضاه في حياته، وقالت إنها ستظل تجتاز به ميدان تمثيل واقعة كربلاء في العاشر من محرم من كل عام حتى يحين اليوم الذي يظهر له فيه شاربان"[25]، إذ يجد القارئ أنّ النسق الثقافي والديني يحضر عن طريق نذر مكية الحسن الذي يربط حياتها الشخصية بالمعتقدات الدينية والطقوس الشعبية، نذرها بإعطاء دينار في مرقد "سيد جار الله " إذا أنجبت ولداً ينجو من الموت وهذا يوحي بدلالة التفاعل بين الأمل في الحياة والموت، وبين مفهوم الثواب والعقاب في الدين، إذ يرتبط النذر بالرحمة الإلهية والتقرب إلى الله عبر التضحيات، كما نجد في " تمثيل واقعة كربلاء في العاشر من محرم"، إلتزامنا بالطقوس الدينية المرتبطة بذكرى عاشوراء، مما يعكس كيف أن الدين واللغة يتداخلان لخلق ممارسات ثقافية تحدد سلوك الأفراد، وهذه الممارسات تبرز دور الدين في تشكيل الهويات الشخصية والاجتماعية، إذ يصبح النذر والاحتفال الديني من وسائل الحفاظ على التواصل مع القيم الروحية والتاريخية المقدسة.

"بعد شهور، وفي ظهيرة يوم جمعة عاد سلمان اليونس من سوق لبيع الاغنام ومعه حروف لم يتمكن من السيطرة عليه فاستعان بالأولاد الذين انصرفوا لمداعبته فيما حمل أحدهم حزمة من الحلقاء الإطعامه، قرب التنور، في زاوية من باحة الدار ، دق وتدا في الأرض. ربط الخروف إليه بحبل سميك، وأمر ابنته حليمة أن تقدم له خبزا يابسا ونخالة وماء، وعندما سألته مكية الحسن الحبلى، وهي تجلس يحذر مستندة إلى الجدار الطيني الواطئ، أجاب قائلا: "إنه قربان للرجل الذي زارني في المنام"[26].

يظهر النسق الثقافي الديني في القول السابق من خلال فعل تقديم القربان للرجل الزائر في المنام، وهذا يشير إلى تجربة روحانية أو حلم ديني يُفسر على أنه رسالة إلهية، ويدل هذا كيفية تأثير المعتقدات الدينية في الأفراد وتوجيه سلوكهم، والحلم في السياق السابق هو إشارة من الله أو أحد أوليائه كما أنّ استخدام الأطعمة التقليدية مثل الخبز اليابس والنخالة والماء بوصفها جزءاً من القربان يشير إلى البساطة في الطقوس الدينية التي قد تكون مرتبطة بالفقر أو العادات القديمة التي تظل قائمة في المجتمع تحقق الترابط الاجتماعي والروحي.

ومن النسق الثقافي الديني قول الراوي: "سأل الملا مكية الحسن فشرحت له اضطرابات الصبي، فتناول قلما خشبيا ودواة وخط بالزعفران كلمات غامضة على ورقة وطواها بهيئة مثلث، ثم أعد واحدة أخرى مثلها تماما . قال وهو يناولها الورقتين: "علقي واحدة بدبوس في كتفه وأربطي الأخرى في وسادته، أثناء العودة تكررت صورة الملا أمام عيني علي كثيرا. وفي الأيام التالية تلاشت الوجوه المخيفة التي يراها كل ليلة من ليالي الشتاء وحل محلها وجه الملا ذو العينين المكحلتين"[27].

يحضر النسق الثقافي الديني من خلال التأثير في حياة الأفراد ودفعهم إلى التوجه المباشر مع الأزمات التي تعترضهم، ففي الفقرة السابقة يوظف الروائي النسق الديني من خلال شخصية (الملا) التي تستطيع التعامل مع الاضطرابات النفسية باستخدام طقوس دينية وروحية تقليدية لها أدوات مادية مخصصة، ويكشف الروائي من خلال هذا النسق عن تعلق الناس بالتراث الديني يجعلهم يعتقدون أنه يمتلك القدرة على المعالجة والشفاء، والطقوس التي يلصقها الروائي بشخصية الملا تعطيه صفة الإيمان بالرمزية الدينية والتقاليد الروحية واتباع الناس لها في بعض المجتمعات، إذ يعتقدون أنّ تعليق التمائم يمكن أن يسهم في حل المشكلات النفسية والروحية ويرونها أكثر تأثيرًا من الحلول العلمية وهذا يرجع إلى الثقافة المسيطرة وتمسك المجتمع بها.

وبناء على ذلك فقد يُستخدم الدين لتثبيت الوحدة الاجتماعية بين أفراد المجتمع، أو قد يصبح مصدرًا للنقد والمقاومة ضد الظلم الاجتماعي والسياسي، ويمكن للمبدع من خلال استخدامه للنسق الديني أن يظهر التأثير في المجتمع وتوجيهه في القيم والسلوكيات الاجتماعية والسياسية.

الخاتمة:

أظهرت الأنساق الثقافية في رواية "خلف السدة" أن الأدب ليس فقط وسيلة لتمثيل الواقع الاجتماعي والسياسي والديني، بل هو أيضًا أداة للكشف عن الصراعات الداخلية التي يعيشها أفراد المجتمع، وكيف يتم التأثير فيها عبر تداخل العوامل الثقافية. وقد ظهر أثر الأنساق الثقافية المختلفة داخل النص الروائي إذ حمّله الراوي دلالات متنوعة كشفت تأثير الأنظمة السياسية والظروف الاجتماعية المحيطة على حياة الأفراد، والصراعات الطبقية والاجتماعية التي تؤثر في الخيارات والسلوكيات، والممارسات الدينية بوصفها جزءا لا يتجزأ من الهوية، وتجدر الإشارة إلى أنّ الراوي العليم بكل شيء لم يقتصر في أثناء الكتابة على توظيف أنساق كبرى رئيسة، وإنما دعم ذلك بأنساق فرعية متنوعة، كشف من خلالها طبيعة الحياة والإنسان ونقل الصورة للمتلقي بوضوح.

المصادر والمراجع:

1. حضور النسق الديني في الرواية الجزائرية، عبد الرحيم شاقور ، مجلة علوم اللغة العربية وآدابها المجلد 12، العدد 3 جامعة حمة لخضر، الوادي، 2020.
2. الخروج من التيه العودة إلى سلطة النص، عبد العزيز حمودة، عالم المعرفة، الكويت، ٢٠٠٣.
3. خلف السدة، عبدالله صخي، دار المدى، ط١، ٢٠٠٨.
4. علم الاجتماع عند ثالكوت بارسونيز بين نظريتي الفعل والنسق الاجتماعي، محمد عبد العبود مرسي، جامعة القصيم السعودية، ط١، 2001.
5. علم التناص والتلاص، عز الدين مناصرة، دار مجدلاوي، عمان، ط٣، ٢٠٠٦م.
6. لسان العرب، ابن منظور، تح: عبدالله الخزرجي، دار صادر، بيروت، ط٣، ١٩٩٢.
7. لسانيات الخطاب وأنساق الثقافة، حمد يوسف عبد الفتاح، منشورات الاختلاف الدار العربية للعلوم، الجزائر :بيروت، ط1، 2010.
8. مختار الصحاح، محمد بنأبي بكر بن عبد القادر الرازي، مكتبة لبنان بيروت، 1986.

9. المصطلحات الأساسية في لسانيات النص وتحليل الخطاب (دراسة معجمية)، نعمان بوقرة، جدار للكتاب العالمي، عمان، ط١، 2009.
10. النسوية في الثقافة والإبداع، حسين مناصرة، عالم الكتب الحديث للنشر والتوزيع، الأردن،ط١، 2008.
11. النقد الثقافي قراءة في الأنساق الثقافية العربية، عبد الله الغذامي، المركز الثقافي العربي، بيروت، ط٣، ٢٠٠٥.
12. النقد والإيديولوجيا، إيجلتون تيري، ترجمة: فخري صالح المشروع القومي للترجمة القاهرة، مصر، عدد 611، 2005.

([1]) ينظر: لسان العرب، ابن منظور، تح: عبدالله الخزرجي، دار صادر، بيروت، ط٣، ١٩٩٢، مادة نسق.

([2]) مختار الصحاح، محمد بن أبي بكر بن عبد القادر الرازي، مكتبة لبنان بيروت، 1986: 274.

([3]) علم التناص والتلاص، عز الدين مناصرة، دار مجدلاوي، عمان، 2006، ط3: 3.

([4]) المصطلحات الأساسية في لسانيات النص وتحليل الخطاب (دراسة معجمية)، نعمان بوقرة، جدار للكتاب العالمي، عمان 2009، ط1: ١٤١.

([5]) لسانيات الخطاب وأنساق الثقافة، حمد يوسف عبد الفتاح، منشورات الاختلاف الدار العربية للعلوم، الجزائر، بيروت، ط1، 2010: ١٥١.

([6]) النقد والإيديولوجيا، إيجلتون تيري، ترجمة: فخري صالح المشروع القومي للترجمة القاهرة، مصر، عدد 611، 2005: ١١٨.

([7]) ينظر: النقد الثقافي قراءة في الأنساق الثقافية العربية، عبدالله الغذامي، المركز الثقافي العربي، بيروت، ط٣، ٢٠٠٥: ١٤.

([8]) علم الاجتماع عند ثالكوت بارسونيز بين نظريتي الفعل والنسق الاجتماعي، محمد عبد العبود مرسي، جامعة القصيم السعودية، 2001، ط١٠٢:1- ١٠٣.

([9]) خلف السدة، عبدالله صخي، دار المدى، ط١، ٢٠٠٨: ٨.

([10]) المصدر نفسه: ٣٧.

([11]) خلف السدة، عبدالله صخي: ٢٠، ٢١.

([12]) المصدر نفسه:٢٧.

([13]) خلف السدة، عبدالله صخي:٣١.

([14]) المصدرنفسه:١٢.

([15]) المصدر نفسه: ٢٢.

([16]) خلف السدة، عبدالله صخي: ٢٣.

([17]) ينظر: الخروج من التيه العودة إلى سلطة النص، عبد العزيز حمودة، عالم المعرفة، الكويت، ٢٠٠٣: ٢٥٩.

([18]) ينظر: الخروج من التيه العودة إلى سلطة النص، عبد العزيز حمودة: ٢٥٩.

([19]) خلف السدة، عبدالله صخي:١٣.

([20]) خلف السدة، عبدالله صخي:١٤٥.

([21]) المصدر نفسه:١١٣.

(22) خلف السدة، عبدالله صخي: ١١٥.

(23) ينظر: النسوية في الثقافة والإبداع، حسين مناصرة، عالم الكتب الحديث للنشر والتوزيع، الأردن، 2008، ط1: 27.

(24) ينظر: حضور النسق الديني في الرواية الجزائرية، عبد الرحيم شاقور ، مجلة علوم اللغة العربية وآدابها المجلد 12، العدد 3 جامعة حمة لخضر ، الوادي، 2020: 295.

(25) خلف السدة، عبدالله صخي:٧.

(26) خلف السدة، عبدالله صخي:١٧.

(27) حلف السدّة:٣٦.